المسيحق

العدد ١٤٨ - السبت ٧ كانون الثاني ١٩٩٥

جورج خضر

القدس ضمير المسيحيين العرب

يشار يوم

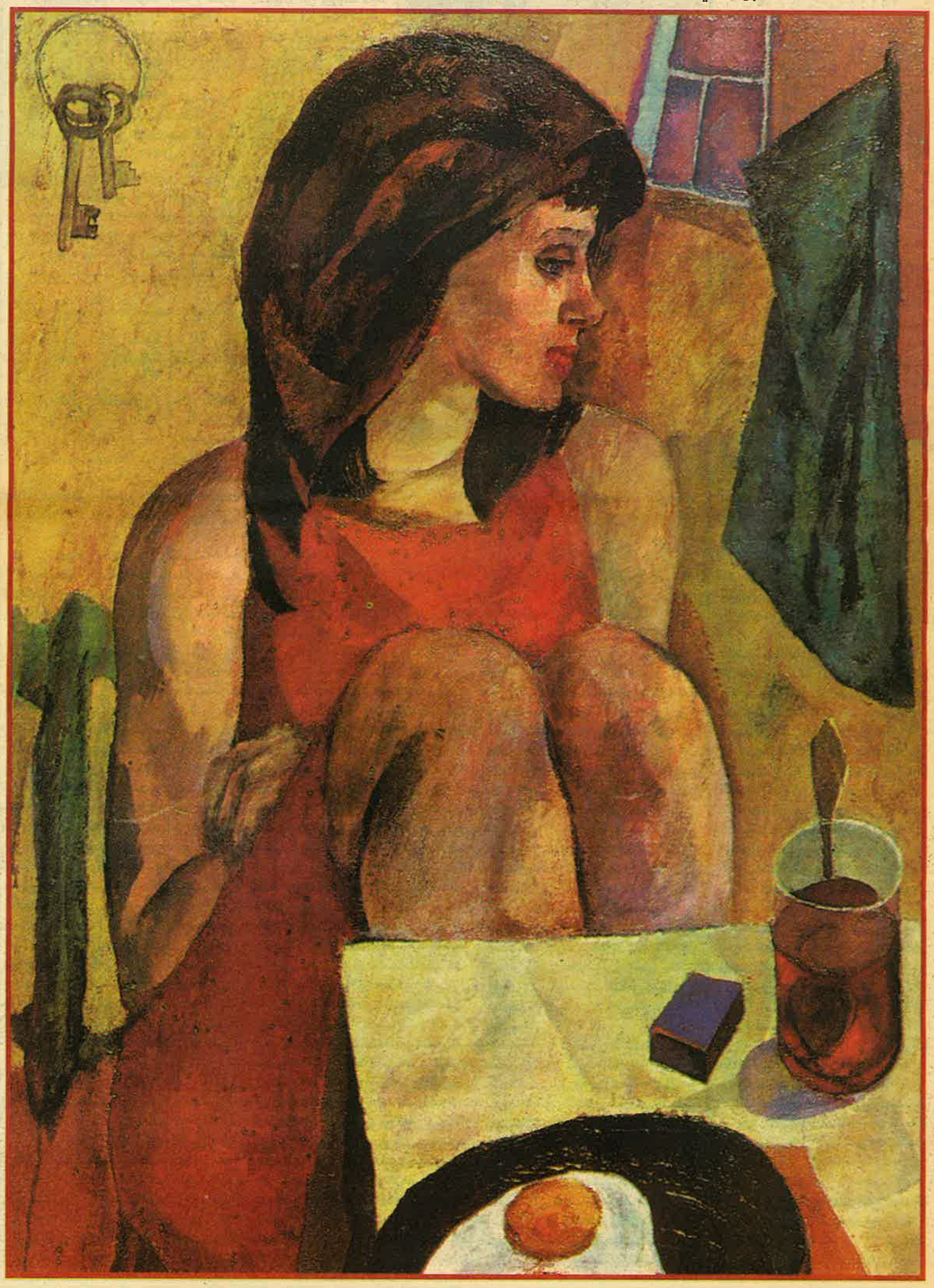

CY2 D120

ميشال شيحا اليوم

ميشال شيحا أكمل نظرية للنظام اللبناني

عباس بيضون

انقضت على غياب ميشال شيحا اربعة عقود كاملة، اكلت نصفها الحروب الداخلية وغير الداخلية واعترضتها تبدلات راديكالية، واذا كنا نعود الى شيحا اليوم، فليس فقط عن حاجة لبناء متحفنا الثقافي، وهو متحف لم يتسع لنا وقت ولا ظرف لبنائه، ولا فقط عن حاجة الى التماس نقطة البداية التي باتت ابعد ما يكون، ولا فقط عن حاجة الى ايجاد نوع من ذاكرة قريبة وماض قريب. فثمة في فكر شيحا على رغم مرور هذه العقود الصعبة والدراماتيكية ما يوحي انه ليس من اوابد الثقافة ومنسيها، ثمة في فكر شيحا ما يصلح لشحذ بل ولاستعادة نقاش مطوي. واذا صح ذلك غنمنا منه املا ولو شاحبا في ان الحروب والتبدلات والانقلابات لم تقطع نهائيا بين عقود تاريخنا وعموده وحقبه، وان ثمة خيطا ظاهرا او مستورا يخترقه من التأسيس الى اليوم، واذا صح ذلك، ربحنا املا في ان العاصفة، بل العواصف، لم تأكل الجذور، وان ثمة ظلا لصيرورة لبنانية ليس خادعاً.

كان شيحا يتكلم عن (حلول من لحم ودم) وطالما اشار الى ان الواقع اكثر حياة من النظرية، والارجح انه لم يخف ضيقه بالطوباويات: الطوبى القومية والطوبى الديموقراطية. فاذا كان مثال الطوبى القومية الانصهار والتوحيد الكامل فان ميشال شيحا اشار دائما الى تفاوت واختلافات لا تتخطى. واذا كان مثال الطوبى الديموقراطية في المساواة المجردة فان ميشال شيحا اشار الى خصوصيات سلالية وطائفية قلما تتيح المساواة المجردة. والارجح ان التماس شيحا للواقع الحي وطلبه لحلول من لحم ودم وضيقه بالطوباويات يجعل له محلا استثنائيا في ايامه. اذ ان عروبوي تلك الآونة ولبنانوييها وروسورويتها ما كانوا يقيمون في الارجح للواقع الحي الاعتبار نفسه، ولا شغلتهم الحياة الحاضرة بالقدر ذاته. فهم في الاغلب يطلبون مثالاتهم من ماض آبد، هو في حساباتهم عصر الوحدة والمجد والروح، اما الحاضر المجزأ المفتت فكان بالنسبة لاكثرهم انتكاسا عابرا لا يوقف عنده ولا يعتد به. كان الحاضر بالنسبة لاكثرهم اول نهضة والعبرة بعواقبها ونتائجها. بل غالبا ما وصم هذا الحاضر بانه مصطنع زائف، واعتبر من نتائج القسمة الاستعمارية والانحطاط الظرفي. وميشال شيحا بين هؤلاء كان ابن الحاضر بامتياز. لم يجد في التعدد ولا التجزؤ ولا التفاوت امرا عارضا، ولم يغب في طوبى الماضي الموحد والمجيد، ولم يذهله شيء عن رؤية النسيج المتناقض للبنان بشرا وموقعا ودولة. ولم تجتذبه دعاوى التوحيد الخالص والديموقراطية الخالصة، بل سمى هذه في عبارة نفاذة "تبسيطا" وهي تبسيط لانها تفك المعادلة التي احد طرفيها، ولانها تستغني عن الاشكال بواحد من عناصره. وتغيب دائما الجهة الاخرى. تبسيط لانها تبني على وجه من وجوه، وتتجاوز العملية التاريخية الصعبة والمعقدة الى حلم امامي. ربما لذلك لم تذهب لبنانية ميشال شيحا الى حد التسبيح بحقبة واحدة من تاريخ طويل متنوع، ولا الى حد الدعوى القومية، ولم تذهب ليبراليته الى حد الطوبى الديموقراطية (وهذه تبسيط محض كما عبر شيحا) كان لبنان الحاضر دائما منشأ تأمله ومصدره. لبنان المتحرك المتغير الدينامي، لبنان المتناقض المتعدد المتفاوت، وطالما ادرك ان هذه العملية التاريخية الصعبة المعقدة محفوفة بالمخاطر، معرضة للانهيارات مهددة باستمرار. لبنان يعيش في الخطر، لم ينفك ميشال شيحا عن انذارنا بذلك. والارجح ان من فتنوا به لم يسمعوا نذيره هذا بالاهتمام الذي اولوه لشيحا نفسه. لبنان يعيش في خطر من نفسه ومن محيطه وعالمه. طالما رفع شيحا الصوت، ولم يكن في مقالته هذه نبياً عابسا غاضبا، ولكن اقتصاديا وحقوقيا ومفكرا وشاعرا في آن معا، وكان يحدد مكامن الخطر واواليات وعواقبه بوضوح اخاذ، وقد قضى الرجل عام ١٩٥٤ ولبنان على ابواب حرب اهلية، نظلم شيحا اذا قلنا انه تنبأ بها. فليس الرجل من غربان الحروب. لكنه استشرفها بحق، اكد شيحا ان انهيار التوازن بين المجلس (الذي هو في نظره برلمان طوائف) والسلطة التنفيذية مجلبة لانهيار المجتمع والحرب بالتالي، وصح استشراف شيحا، هذا المثل يبين ان مستند شيحا الاول هو نسيج "الواقع الحي" واواليات، وليس عمله النظري سوى استشراف حركة هذا الواقع واواليات ومصائرها. كان ميشال شيحا بذلك فريدا في ايامه. فالارجح ان مثل هذا البحث لم يرق لمعاصريه الذين جعلوا غرضهم في طوبى ما تاريخية او لغوية او دينية وحتى طبقية وليبرالية. ولم يعيروا بالهم للتركيب الاجتماعي والثقافي والطائفي للبنان. ربما كان ميشال شيحا في هذه لبنانيا اكثر من سواه. فالبلد الذي يدين كثيرا لدقة موقعه وحراجته والى فسيفسائه البشرية والدينية والى تكيفه السريع مع تبدلات محيطه وعالمه حري بان ينتج فكرا (مدينيا) يقيم اعتبارا للحاضر والمكان والتركيب الاجتماعي. وهذه امور لا ينفع معها "التبسيط" ولا الطوبى، ولعل "مجابهة النظرية دائما بالواقع الحي" على حد تعبير شيحا تقريبا، والارتكاز الى الحاضر ومعرفة الاواليات الدقيقة والخطرة للمسار الاجتماعي، والانتاج النظري من هذه المعرفة الميدانية والبعد عن طوباويات ومثالات مفارقه، لعل هذا ما نرتجيه اليوم لثقافتنا، وفي ذلك كان ميشال شيحا بمعنى ما رائداً ومعاصرا.

سعى ميشال شيحا الى ان ينظر للبنانيه (بكسر الاخير لا تنوينه) ارتكازاً الى هذا الفحص التاريخي والميداني، وليست توسل شيحا للماضي الفينيقي ومقابلته بين الاولية الفينيقية والراهن من قبيل امتداح الماضي الفينيقي وتسبيحه، فميشال شيحا على كونه شاعرا يوفر الشعر لفرض آخر، يوفره للاستشراف لا للمديح، والارجح ان شيحا في عودته لفينيقيا يشهدها على صحة نتائج استدل بها على الواقع والمكان اكثر من استدلاله على التاريخ نفسه، في ما عدا ذلك لا تعدو فينيقيا ان تكون صفحة من صفحات ، فمثل ميشال شيحا لا ينقطع للاجداد ولا يتفرغ لعبادتهم، وهو اذ يرث تاريخهم فلانه يرث ارضهم، وليست فينيقيا سوى بداية شعب تكون على مدى حقب تاريخية ولا يزال يتكون واقرب مصادره الينا بحسب تاريخ شيحا (عام ١٩٤٢) وفد من خمس وعشرين سنة. وهذا زمن أينه من الغابر الفينيقي. يشهد شيحا فينيقا على مفاعيل الموقع والمكان اللبنانيين. في غير ذلك يستوي الفينيقيون والعرب والصليبيون والمسيحيون الوافدون من الشرق الادنى في شقع سلالات ومصادر اتنية قلما يعتني شيحا بتصنيفها وتبويبها، فالمفكر والسياسي والاقتصادي اللبناني لا يحل التاريخ الزمني رغم كل شيء الا في المحل

ميشال شيحا.

الثاني، والاهم من ذلك انه لا يحل التكوين السلالي الا في المحل الثاني. ان شرع المكان على حد تعبيره مقدم على شرع الدم، فثمة اكبر من رحم لبنانية واكثر من جد واكثر من اصل لكن المكان يبقى نفسه.

يبدأ ميشال شيحا وهذه ميزة لبنانية كما لاحظ احمد بيضون في "الصراع على تاريخ لبنان" من المكان، من الوقع والتضاريس، من الجغرافيا. ان مدخله النظري من هنا. هذه ميزة لبنانية بحق وان ذهبت طوبى لبنانية الى رد اللبنانيين الى رحم واحدة واجداد متصلين، فهذا تبسيط لا تستغني عنه طوبى فيما نعلم، الا ان لبنان عند الاقليات اللاجئة اليه من وراء الحدود هو الارض لا الرحم، ولبنان الذي موقعه قطب ضعفه وقوته يتحمل بسبب ذلك تبعات تفيض عن مساحته وعديده وامكاناته. فلا عجب ان يكون المكان لا الزمان في اساس فكر سياسي وسوسيولوجي لبناني. ولعلنا هنا نلاحظ ان تقديم المكان في لبنان كان دائما عماد فكر متسامح يقر بفسيفساء المجتمع السلالية والدينية وينزل عند تعددها وتفاوتها وثقافاتها ويعي مخاطر ما سماه "حذر الضعفاء الغريزي" وتنازع اقوام يجد كل منها في لبنان "ارض ميعاده" خطر التوحيد والصهر العشريني لاعراق وجماعات مختلفة. فيما كان هذا الحذر يغيب في فكر طوباوي لا يقيم اعتبارا لخاصية المكان هذه ويذهب في خرافة تضيق غالبا بجغرافيا البلد وفسيفسائه البشرية الى حلم وحدوي وتاريخ متخيل لا يلبثان ان ينحطا الى جزء من لبنان يتوهم فيه هذا النقاء التاريخي وينفض اهل هذه الطوبى عن انفسهم فسيفساء البلد وتفاوته وجغرافياه، ولعل الفكر الثوري غالبا ما يذهب في هذا المنحى (انتبه بشير الجميل في اخريات ايامه الى مساحة لبنان ومكانه فيما بدا في خطاب الرئاسة الذي لم يلق وكأنه يضرب في واد آخر. اما العماد عون فذكر بالمرات التي احترقت فيما بيروت وانتهى الى الاستغناء عن الطرف الثاني، اما العروبويون فليس لهم الا طوباهم الزمانية الوحدوية، والقوميون السوريون بدأوا من اولوية المكان فسعادة لبناني كما نعلم وانتموا الى وحدانية تاريخية) ولامر ما بدا تقديم المكان (عبقرية المكان لدى جمال حمدان، في مصر اقرب الى اليسارية).

اما الموقع اذن بمخاطره وتبعاته، الموقع بين البحر والصحراء وعلى ملتقى ثلاث قارات، جعل من لبنان مطمعا للاقوياء من جيرانه وغير جيرانه، وعرضه لمخاطر ليس اقلها استتباع متعدد الوجه على مدار تاريخه. كل هذا يذكره شيحا في ذكره حكمة تمنع من الانقياد لدعوى العظمة الانتحارية غالبا. لكن شيحا يقيم على الموقع اللبناني دعوى المغايرة وهي في الغالب ركن في "لبنانيته". اما المغايرة فهي في ما يكلفه اياه وجهه البحري من تنازع مع الصحراء التي يقع على تخومها، وفي ما يستقبله من انخاب، هيئة متوسطية (هو اشبه بجزر المتوسط الكبرى بحسب شيحا)، والمغايرة تجعل لبنان في ملحق سلالي غير سامي ولا عربي، وهو ايضا ليس فينيقيا ولكنه ببساطة لبناني واذا اوجب التحديد فهو فصل متوسطي.

هنا ولا شك الخندق الذي وقع فيه خطاب الحرب اللبنانية الاخيرة، غير ان شيحا ليس مسؤولا بطبيعة الحال عن هذا الخندق. ثم ان من السذاجة بمكان اخذ هذا الخطاب على محمل الجد وتصديق ان حربا ضارية كالحرب اللبنانية الاخيرة دارت حقا حول الاصل. ولا شك ان شيحا لم يفته حذره وهو يسمي لبنان لبنانيا متوسطيا فهنا لا محل لانتساب عرقي ولا استقرار على قومية أو امة، غير ان الملحق السلالي الذي يستبعد السامية قطعا للطريق على العروبية هو ايا كانت صحته الاتنية وامكان التحقق عنها يذهب ابعَد من حذر شيحا ويؤسس لخرافة عرقية، لم يكن شيحا الذي يعتبر لبنان مصهر اعراق من روادها ولا دعاتها.

المهم ان المغايرة التي قد تتأذى من دعوى عرقية كهذه وتتأذى اكثر من قيامها على التبجح والمباهاة واحتقار الجار (الذي قد ينعكس في الداخل احتقارا للشريك الاقل تقدما) هذه المغايرة اذا لم تكن بالضرورة مفاخرة البحر والجبل للصحراء، امكن لها ان تكون وجه خصوصية ليست الوحدة ولا التجانس او التماثل بالضرورة من اركانها وقد يكون الاختلاف والتعدد قطب رحاها. الا ان الديموقراطية وهي بعبارة بسيطة نشوء السلطة والزعامة من المجتمع لا العكس، والانتماء لا الى السلالة والخارج العالمي ووجود مجتمع مدني غير محدود نهائيا باجهزة الحكم واقتصاد متحرك وخدماتي، وتعليم مكثف ووجود مجتمع متعدد الاتنيات والطوائف ويقوم لا على غلبة احدها ولكن على توازن الضعف. كل هذه في الاغلب عناصر خصوصية ومغايرة لم يفعل الزمن بعد شيحا سوى تعميمها وترسيخها وتطويرها وإن على نحو صراعي ومأزوم. ولا نشك ان الحرب اللبنانية كانت سياق هذا التطور الصراعي المأزوم، لكن ايا من الجماعات اللبنانية بعد الحرب لا تستنكف عن طلبها وادعائها لنفسها والارجح ان وعيا عاما لدى المثقفين والنخب باشتراك اللبنانيين فيها واضح، واذا كانت الحرب في الواقع قد جعلت بعضها صوريا، وحوّرت في بعضها الى حد خطر (قرب ما بين المكان والجماعة والمصلحة مثلا) وجعلت من بعضها حصنا وخندقا داخليا (المؤسسات المدنية) الا اننا مع ذلك لا نشك جميعا الان في ان للبنان وجها ايا كان هذا الوجه

والمغايرة الآن، اذا انتفت من التبجح باتت داخلا وحداً بين الداخل والخارج لا يقوم مجتمع ولا دولة بدونهما، المغايرة في حدها الادنى الاستقلال، والقبول بلبنان، حدوده واستقلاله مما يشترك فيه لبنانيو بعد الحرب، ولا اظن ان شاهدا اقوى على قوة هذه المغايرة مما يصيب مجتمعنا اليوم من قلق وزعزعة وأزمة وجدان، هي نتائج سلبية لما يصيب المجتمع من تغير يلحق مقومات مغايرته (الديموقراطية الصورية ونشوء الزعامة من خارج المجتمع، اجتماع المكان والمصلحة والرحم الطائفي، تفتت المجتمع المدني، زوال السياج الداخلي، فقدان اواليات التدرج والتراتب...) فأزمة المغايرة هذه دليل سلبي على وجود اطر سياسية وثقافية واجتماعية، الهندام يحيل الحياة الاجتماعية الى صفر، ويوقعها في ازمة قيم واطارات.

تنظير شيحا يتسلسل من مغايرة الموقع الى تنازع التضاريس الداخلية، تنازع الجبل والبحر، الجبل الملجأ، الذي استقبل اقليات مضطهدة تتحصن فيه وتحفظ كيانها وتواصل تقاليدها وثقافتها، والبحر الذي يحمل السفن الى العالم ويستقبلها ويعقد الصلات التجارية وجدل البحر والجبل جدل الوجود اللبناني. الجبل للتقاليد والمحافظة والعزلة النسبية والتغير البطيء الذي يشبه الثبات والسياسة، والبحر للحركة والانفتاح والتغير والاقتصاد، الجبل للجماعات الطائفية شبه المغلقة على ثقافتها وتقاليدها وللاسر المتزعمة وللنزعات العسكرية والعنف المستتر، والبحر للاختلاط والتسامح والتغير والتعدد الاتني واللغوي، وللبورجوازية الجديدة والمجتمع الحديث. الجبل للمجلس النيابي الذي هو برلمان طوائف، والبحر للسلطة التنفيذية والجهاز الاداري وبطبيعة الحال للنقابات والهيئات الاقتصادية. ربما لم يصغ ميشال شيحا الامر على هذا النحو، والا ان ثنائية

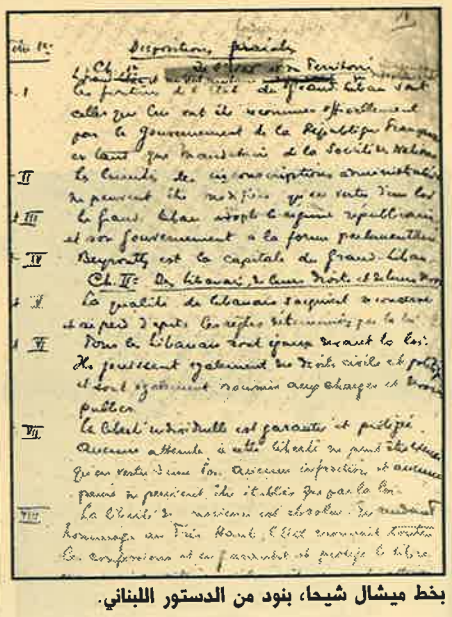

بخط ميشال شيحا، بنود من الدستور اللبناني.

البحر والجبل هذه تنسل ثنائيات اصفر، واذا نحن في الاخير في الجدل اللبناني الذي هو جدل هذه الثنائيات الذي لا ينتهي.

ليس جدلا هادئا هو على كل حال، انه جدل محتدم، بل جدل خطر اذا جاز القول، ولشد ما اهتم شيحا بان لا يخرج الجدل عن نطاقه وان يبقى حيث يمكن حصره واحتواؤه، وان لا يخرج الى الشارع كما انذر مرارا كان من الصعب ان يبقى الامر على هذا الميزان الدقيق، فالبورجوازية والنخب الحديثة والدولة التي قام عليها بادئ الامر بورجوازيون مدينيون كل هؤلاء يشكون ولا شك من نفوذ الزعامات والاسر الطائفية وتدخلها الذي يعطل في جملة ما يعطل استقلال الادارة ويقلل من تساوي الفرص ويجمّد الحياة السياسية، ولم يكن ميشال شيحا بطبيعة الحال غافلا عن ذلك. المجلس النيابي الذي حصن هذه الزعامات وهو بنظر شيحا (مكان لقاء وتوحيد للطوائف) رلا ينتظر منه الا ان يكون "ضعيف الكفاءة وهو لن يضم احسن الادمغة وسيعوزه الاتزان ويكون اداؤه رديئا) لكن ميشال شيحا يوصي مع ذلك بان (يفسر له عمله وان لا نجعل منه مسخرة بل علينا ان نعفيه لمدة من المهمات البالغة الدقة) ذلك ان افلاس المجلس يعني في نظر شيحا الاحتكام الى الشارع والى المحراب، حيث السجال الدموي. لشد ما حثني ميشال شيحا ان يؤدي تعجل البورجوازية والنخب والحكام الى تعطيل المجلس او شله، مما يخرج النقاش من المؤسسة الى الاحياء، ولكنه واعيا بان مهمة المجلس النيابي هي احتواء النقاش الطائفي، وان ذلك قد لا يتوازى مع حاجات الادارة والاقتصاد اوحى بما يشبه ان يكون برلمانا للبورجوازية (المجلس الاقتصادي الاجتماعي). لن نطيل، لم يصغ احد كفاية الى تحذير شيحا، ولم يكن للنخب الحاكمة الصبر والحكمة اللذين طلبهما شيحا. وفي ١٩٥٨ بعد اربع سنوات من وفاة شيحا، خرج النقاش الطائفي الى الشارع والى السباق الدموي، بعد ان قزم الرئيس كميل شمعون البرلمان وواتى هذا ظرفا عربيا ملائما. وكانت "الثورة" في عز الانتعاش الاقتصادي.

ذهب الرئيس شهاب الى ابعد في تقزيم البرلمان، ورغم ان الادارة الشهابية اصفت الى ميشال شيحا في اكثر من ناحية (مجلس الخدمة المدنية، قطع الطريق امام اغراءات الجوار حسب تعبير شيحا، انعاش المناطق، حتى المجلس الاقتصادي الاجتماعي الذي لم ير النور وإن وجدت بدائل جزئية له) استلحقت الزعامات الطائفية الدنيا وحجر على الزعامات الاقوى، فلم يعد البرلمان محل نقاش، واذا كانت القبضة العسكرية ضبطت الوضع وتم احتواء زعماء الاحياء الا ان السجال الطائفي المحتقن ما لبث ان عرف طريقه الى الشارع. في هذه المرة خرجت السلطة نفسها من ايدي البورجوازية المدينية وصارت الى زعامات ريفية ولم تعد السياسة عمل النخب المدينية بل تعممت في الجبل، وجرفت معها رواسب العزلة والمحافظة، التي تغذت من طوباوية مثقفين لم تتم لهم (حيازة معرفة وفهم كافيين لوضع لبنان الجغرافي.. وشمول هذين المعرفة والفهم طبيعة الجماعات المختلفة التي يتشكل من شراكتها الشعب اللبناني) مؤلاء كان دأبهم التبسيط، لقد فكوا المعادلة الصعبة ومضى كل من جهته الى الاخيرة في الطرف الذي يخصه منها، وواتى هذا ظرفا خارجيا ملائما. فاشتعلت الحرب في عز الانتعاش الاقتصادي حتى القضاء عليه.

ميشال شيحا اليوم

هذا بالطبع تبسيط مفرط، ولسنا الآن في معرض تحليل الحرب اللبنانية لكن صياغة شيحا النظرية الملتحمة بالواقع، ليست تماما باطلة متجاوزة. انها اكمل نظرية للنظام اللبناني (علاقات الجماعات اللبنانية المختلفة في اطار الدولة، ولسنا نجد في فكرنا السياسي ما يوازيها تماما واتساقا، وهي لذلك تؤسس لفكر سياسي لبناني، ثم ان التحامها بالحاضر اعطاها قوة استشراف اكيدة ولماحة حتى الحدس النفاذ واذا كان هذا الاستشراف ليس هو نفسه الآن فلأن النظام اللبناني لم يعد هو نفسه فالسلطة التنفيذية اليوم تكاد تشبه برلمان الأمس، والمجلس الحالي ليس برلمان طوائف، انما هو اقرب الى جهاز اداري، ومن هنا تماسكه الذي تحسده عليه الادارة. اما السجال الطائفي فليس ضروريا، كل طائفة تكلم نفسها وتعمل لنفسها، تغير النظام الى حيث لا نظام تقريبا. تغير ارادي مفبرك وليس هنا مجال البحث عن اواليات فعلية. فنظرية شيحا لا تستشرف ما لا حقيقة له.

ميشال شيحا: ثلاثة نصوص

في الذكرى الاربعين لغياب ميشال شيحا، يستعيد "الملحق" حضور هذا المفكر الذي ساهم في هندسة فكرة لبنان المستقل، عبر نشر ثلاثة نصوص له ترجمها احمد بيضون عن الفرنسية، وحوار مع الشيخ ميشال الخوري ومقال قديم لغسان تويني ، مع تقديم كتبه عباس بيضون.

"الملحق"

معنى وجودنا

لن نجعل من لبنان ارضا تكره البشر. ها هنا كل شيء يتقبل الانسان ويوفر له المأوى عن رضا: مائتا كيلومتر من الشطآن النضرة الخضراء، وفي العمق جبال شامخة لا تزال ديارا آمنة على وجه التقريب، لمن كان مزمعا الدفاع عنها.

ولكن هذا المكان السامي ليس للبيع. يكفينا ان نكون اليوم ما كانه الغرب قبل مئة عام. ولا يجب لاي اغراء ولا لاية فتنة ان يحملانا على تبديد هذه التركة. فلتسبقنا المدنية! في وسعنا ان نجد في هذا السبق نفسه صالحا لنا.

في موطننا الدنيوي الصغير، الواقع، جغرافيا، بلا اختيار منا في نقطة المركز من العالم القديم، نجد انفسنا، بقوة الواقع، على طرفي نقيض والعنصرية. فنحن قد استحلنا الى هذه الجمهرة المتنافرة لاننا جعلنا من انفسنا ملجأ الف مرة. وليس حتما ان تموت ارضنا من جراء جميلها هذا. وعاد الزاما علينا اليوم ان لا نشرع ابوابها كيفما

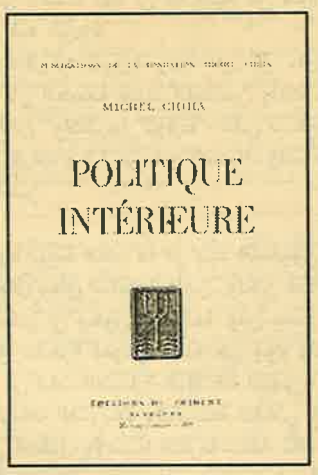

كان ولاي كان. فنحن، كما نحن، عدنا لا نملك خيارا الا ما بين التآخي والموت.

بلد مثل هذا، نوافذه مشرعة على احدى ساحات العالم العامة، ويسود فيه الاضطراب بين العقول ويحمل اليه كل غريب عند وصوله عناصر الفرادة وعناصر الشقاق في موطنه الاصلي... بلد مثل هذا يحتاج، على مستوى القمة، اكثر من كل بلد آخر، الى لزوم صارم لجانب التقليد والى حزم والى ايمان. فاذا ضيّع علّة وجوده، وهي روحية ومعنوية، فانه يضيّع نفسه.

ايها المتوسط الذي امسى، في شيخوخته بحيرة، ايام كل الاشياء تجدد شبابها، نحن ايضا حراس لشواطئك. اما وقد باتت المسافات اوهاما، فهل ننسى اليونان وروما، وقرطاجة والجزر، وكل ما يسبغ على ارجاء بلادنا صفة بروفانسا المشرق (وبروفانسا هي المناخ المشمس والزيتون والبرتقال والتوت والكرمة). نقول ان للمتوسط روحا وقوة احساس واننا لسنا غرباء عن هذه الشعلة ولا عن هذه الحميّة.

وإن هدوء هذا البحر لاقرب الى توليد وعي جماعي من اوروبا التي تعتمل بين جنباتها البغضاء. اوروبا الشمال، معجزة الكبرياء، ممتلئة اليوم بازدراء العقل والحب، فما الطف المتوسط! ويا ايها المتوسط، يا ابا الفنون وجاعل الانسان مدار الفكر وابا الايمان، إن الاوروبيين الكبار يترصدهم الموت ونحن نعلم ذلك. وإن وقع جزمات الاجلاف يغطي الحان فاغنر المترامية نفسها وتنحني "ملنخوليا" دورر على سعار الاقطار الالمانية.

هذا ونزاع الاعراق لا يبعد عن الرخام الاغريقي اهانات البرابرة. فماذا سيجري للعالم اذا بات المتوسطيون غير متحابين؟

ألف من الافراد يسعهم ان يكونوا بمئة ألف إن كان شعورهم ساميا وفكرهم صائبا؛ غير ان سمو النفس وتفوق العقل لا يكفيان لمواجهة الكثرة. وليس نافعا قصر الهم على ابداع الثروات الروحية والمادية بل يجب احسان الدفاع عنها. ففي فصل الجنى تبدو الحديقة المحروسة حراسة ضعيفة وكأنها تدعو السّراق. الصحراء وحدها لا تخشى النهابين.

وقدر البلد الصغير، إن كان يساوي شيئا، ان

ميشال شيحا اليوم

يعود لا يعرف الامان (لان الحق، عند غير الله، بات خيالا) ولكن ذلك لا يسوّغ لبلد هذه حاله ان يتخلى عامدا عن وجهه. ففي عهد اللصوصية الدولية الذي نحن فيه، يجب على البلد الصغير، إن كان مصرّا على البقاء، ان يكون ممتعا بشخصية قوية.

وقال باتريس: فيّ مواجهة عدو معلن او محتمل، لا بد من عقد محالفات. والمرء يكون حليف اصدقائه بقدر ما يستطيع. واذا كان احد الحليفين قويا والآخر بلا حول، فإن الثاني لا يسعه الا يعتمد على شيء الا شهامة الاول. والحكاية تكون، ببساطة، اذذاك، حكاية وعاء الفخار ووعاء الحديد لولا ان مثل هذا التحالف يجد اصله – اذا استبعدنا الاكراه – في فعل ايمان.

وفعل الايمان حالتنا الطبيعية، على حد ما قال باتريس. فإن وجودنا كان فعل ايمان. ونحن، على ضيق ارضنا، نزعم لانفسنا في الماضي وفي الحاضر قيما روحية لا تحد عظمتها. ومناظر ارضنا بهية. ونحن دافعنا عنها ونحن نحبها ونحن سندافع عنها، مستفيدين من دعم تخصنا به فرنسا يقظة، إن لم يكن لشيء فكرمى لهذا المتوسط.

لبنان بلد صغير. ولكن جغرافيته – ودعك من تاريخه – اوسع من جغرافية هوميروس.

٢٣ ايار ١٩٣٨

مدخل الى سياسة لبنانية

هل يأذن لنا الجيل الفتي من اللبنانيين ان نتوسل ذكاءه، وهو ثاقب، في معظم الحالات (وإن جمح في بعضها) فنعرض على حكمه (بمزيد من السرعة ومزيد من الايجاز) محاولة لتسليط الضوء، جزئيا، في الاقل، على وضع يسوّغ كثيرا من القلق على الحاضر ويحيق خطره بالمستقبل؟

لا جرم ان لبنان بلد غاية في الصغر، ولكن اصالة هذا البلد ليست محل جدال. هو بلد غاية في القدم يقال فيه اليوم انه فتيّ للغاية. وموقعه الجغرافي على المتوسط من اكثر المواقع اهمية واكثرها تعرّضا. فهو مائل بين طريق برية واخرى بحرية وهاتان بين اكثر الطرق ضرورة لكرة الارض. وهو من وجهة نظر بعينها ومن زاوية بعينها يشارك اكثر من كل بلد غيره في الوصل ما بين حضارات متباينة موزعة على جهات العالم الاربع.

وفيه تواجه الاعراق والمعتقدات والشعائر واللغات واساليب التفكير والاعراف. هو، في وقت معا، بلد "ملجأ" وبلد هجرة، بلد جبال وسهول، بلد مناخات متنوعة وثقافات مختلفة؛ وفيه نقع على صور الجنس البشري جميعا وعلى صور العمل البشري جميعا.

واذا حفظنا النسب، وجدنا عدد المدارس فيه مساويا لما في اكثر البلدان تقدما، ووجدنا التعليم والعلم بدرجاتهما جميعا ووقعنا، بازاء ذلك، على الجهل بدرجاته كلها ايضا؛ فنحن نقع الى جانب اناس بلغوا غاية الترقي على آخرين (بعضهم مقيم في المدن) متأخرين قرنا او اكثر وبعضهم متأخر آلافا من السنين؛ كل مقامات البشر هنا، حين نطوي الازمنة رجوعا، من الانسان "الذي غادر محوره"، بحسب عبارة كاريل، الى الانسان البدائي.

خلاصة القول اننا هنا بين اكثر المتضادات تضادا واكثر العقليات تباينا واكثر الاعراف تنافرا واقل الوجوه تماثلا. ها هنا عالم اصغر.

وقد جرت العادة، لمّا عزّ ما هو افضل منها، على تقطيع هذه الكتلة الى جماعات رئيسة يحمل كل منها عنوانا طائفيا. وكل من هذه الجماعات متفرعة فروعا وفروع فروع. بقي من هذا التقطيع عدد بعينه من "العائلات" الروحية تتباين مصادر غذائها "العقلي" و"المعنوي" تباينا عظيما، في بعض الاحيان و"تتمثل"، في صور متباينة، هذا الغذاء الذي نتلقى.

هؤلاء الناس جميعا خاضعون لقوانين واحدة، اذا نحن استثنينا الاحوال الشخصية التي تكثر بها السلطات القضائية في مجالات بعينها. وهؤلاء الناس يعيشون على ارض واحدة ويتكون بهم وطن كان لنا ان نعتبره، وهو على الحال التي نرى، مسعى يائسا لولا ان الغالبية من هؤلاء الناس يرون فيه ضرورة.

والحال انه ضرورة. وهو، على كل حال، ضرورة فتّانة لان الطبيعة منحت اللبنانيين واحدا من اجمل "المواطن" واكثرها "توازنا"، على سطح الارض. فالاضطراب هنا ليس في الاشياء، وانما هو قائم في البشر.

وما يزيّنه الحلم هو ان يجد اللبنانيون انفسهم في حال وفاق شامل مفاجئ. ولكن هذا ليس – ولا يمكن ان يكون الا حلما. ولن يسع احدا ان يحقق معجزة التوحيد هذه في يوم واحد. وقد كان من باب الجسارة الباهظة الثمن، الظن ان المعاودات السريعة والضخمة تفضي الى جذب بعض العقول ولاسيما اكثرها عنادا. ذاك امر كان سر الجميع بالامس وهو امر يعلنه الجميع اليوم.

غير ان على اللبنانيين ان يسوسوا انفسهم على نحو يقلل من مقدار المفارقة في وضعهم وعليهم ان "يدوموا" مدة كافية ليتيسر لهم الوصول الى حالة توازن "دائم".

والسبيل الى ذلك هو الادراك ان لعامل الزمن الصدارة حيال مشكلة من هذا القبيل وانه يجب لزوم جانب الحرص في استعمال الزمن ويجب مساعدته. فيجب، اذن، ان يقترب القائد (ايا كان القائد واين كان) من مسلك الحكيم او الديبلوماسي المحنك وان يبتعد بالقدر نفسه عن مسلك آلهة الحرب. وذلك ان الزمن ينشئ العادة ويرسخها، ما لم نعامله بالاكراه. وفي حد العادة ان الذي يريد التعود، عليه ان يتحاشى التقلّب والافراط ما امكن. فيجب اذن تلطيف المطامع والاهواء عوض تهييجها. ويجب تحريك حجارة الشطرنج ببطء والتعويل على البرج قبل الحصان والمجنون، بدلا من قلب الرقعة.

السبيل الى ذلك اذن هو ان نلحظ ان تقريب هذه الكثرة من العناصر المتنوعة بعضها من بعض وتوحيدها لا يستقيمان الاّ بجعلها تعيش حياة سياسية مشتركة وبجعلها تسن القوانين معا في رحاب مجلس تشريعي وتتمكن من السهر على تنفيذ القوانين المذكورة. ذاك الزامي في بلد من طراز لبنان بحكم عبرة الماضي المؤكدة ومصدر هذا الالزام ليس الانعطاف المفرط الى الديموقراطية بقدر ما هو نواميس التوازن نفسها. فالمهم، بل الجوهري، ان يعيش لبنان. وقد يكون محكوما علينا ان لا تنشأ عندنا، قبل مضيّ مدة من الزمن، مجالس تثير الاعجاب من جميع الوجوه. وما تراها تكون الحكومة اللبنانية التي يصح وصفها بهذه الصفة، علي اي حال؟

فاذا كانت السلطة التنفيذية، وهي شاكية السلاح في مواجهة المجلس، لا تستعمل قوتها الا للسير بهذا الاخير نحو الافلاس. واذا كانت نيتها المبيتة الثابتة هي الحط من سمعة هذه المؤسسة الضرورية باستنزافها استنزافا بطيئا، عوض المساعدة في تحسينها بجميع الوسائل، فمعنى ذلك ان السلطة التنفيذية هي ما يجب اصلاحه اولا.

تنزاح عنا صفة الاعضاء في طائفة (بالمعنى الضيّق الذي يعطى لكلمة "طائفة" في الشرق الادنى) ونستحق صفة المواطنين في هذه البلاد بقدر ما نكترث مباشرة لحياة الدولة. ثم نستفيد، بحكم مبدأ المبادلة، من تقدمنا ذاك على الصعيد الطائفي نفسه، اذ يضؤل كثيرا حجم العثرات التي تعترض العمل المشترك في سبيل الخير العام عمّا هو عليه اليوم.

لا يمكن مداواة الفوضى الطائفية والاجتماعية في لبنان بالتجاهل المقصود لما ينتمي الى حقل السياسة. وكل ما تربحه الفكرة الطائفية فالامة هي التي تخسره.

في المقابل، لا يسع ما تربحه الامة الا ان يساعد في التخفيف، على الصعيد الطائفي، من الفوضى التي نحن شهودها الحزانى.

٢ تموز ١٩٣٦

الباب الاول
احكام اساسية
الفصل الأول
في الدولة واراضيها
الفصل الثاني
في اللبنانيين وحقوقهم وواجباتهم

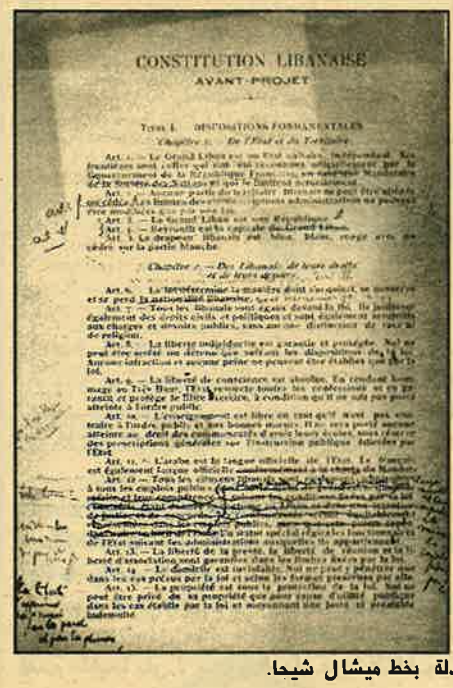
CONSTITUTION LIBANAISE
AVANT-PROJET

صفحات من الدستور معدلة بخط ميشال شيحا.

تذكير ببعض المبادئ

حينما نجادل الحكومة هنا في مسائل اساسية مدارها توازن، هذه البلاد وراحتها وامنها ومستقبلها لا تكون غايتنا بطبيعة الحال متعة المجادلة. بل المتعة تكون، على العكس، بان تكفي مؤونة المجادلة. على اننا لا نأتي بجديد اذا ذكّرنا بان الحكم انما هو التقدير اي الذهاب الى ابعد مدى ممكن في ما يعدو الحاضر دون الضياع، طبعا، في آفاق القرن المقبل، اي في غوامض ما لا يمكن تقديره.

لبنان بلاد تتصف فيها عبرة الماضي بقدر من الاقدمية ومن القوة يؤهلها لتتخذ قاعدة. ولبنانيو اليوم هم، وراء اختلاف المظاهر، اشباه من سلف من اللبنانيين. ولكان مجرى الاحداث يكون هو اياه لو اننا لا نصر على تخطي المحن بفعل متجدد من ارادة وشجاعة وايمان. فاولى مهماتنا ان نحفظ لبلادنا وجهها الواضح اللطيف النبيل الذي هو وجه الحرية ووجه الروحانية ووجه التسامح، اي، بكلمة واحدة، وجه الاستقلال.ولو لم يكن موضوع الجدال غير نفقات صغيرة واخطاء صغيرة وحظوات صغيرة وسياسة صغيرة واشياء صغيرة، لما جاز الافراد في الانفعال. فمعظم الحكومات لا يخلو سجلها من امثال هذه الهفوات والخطايا. ولكان كفانا ان ندرج السيئات في حساب طموح البشر وغرورهم وضعفهم. على ان هذا ليس كل ما في الامر.

فانما نحن نهتم لامر البشر عبر نظرنا في الاشياء. نهتم لهذا الشعب او لهذا العرق باكثر معاني هذا اللفظ انسانية. فما اهمية ان تسعفنا موازنات السنوات السمان فتزيد من عدد الطرق ومن عدد المباني العامة وتباهى بتوريثها لاعقابنا غير مقتصدين في الجمل الكبيرة الطنانة؟ وما اهمية ان تزداد الواجهة ابهة وان تبسط الرياش اذا كان القلب، جله او كله، قد فارق الامكنة؟ وما اهمية الاحتفالات ومظاهر السعادة والابتهاج الرسمية وزينة الاعلام والاضواء تنشر من وقت لآخر، وما اهمية التصدق على الشعب بقروش الشعب، اذا كانت الاخلاق السياسية، وهي كريهة سلفا، تزداد انحطاطا، واذا كانت السياسة والاعمال لا يخضعان، كما ينبغي لهما، للخير العام بل يختلطان، على نحو يستثير الرثاء، ويجعلان سلامة البنيان في مهب الريح؟

لبنان واحدة من بقاع الارض التي لا يستقيم تصورك لشيء عليها الاّ اذا جعلته متوافقا على الانسان، على نوعيته وعلى روحه. في هذا المساق يمسي لاربع سنوات او خمس نربحها او نخسرها قيمة هائلة. وسيتخذ هذا الشعب، لاسباب متصلة بطبعه، صورة قادته. فاذا ظلت تقترح عليه، الى غير نهاية، اساليب مشكوك في سلامتها او خبيثة من اساليب السياسة الانتهازية فانه سيقنع بها اضطرارا ثم تعودا. واذا قدم اليه ما يجد فيه قدوة (باهرة كانت ام متواضعة) في العزة ونكران الذات والوطنية فانه سيعتاد ذلك ايضا وسيكون النفع من ذلك قد عمّ الأمة والقيم الروحية معا.

إن آخر نظام يصح اقتراحه على اللبنانيين هو ذاك الذي يستلهم دناءات العهد العثماني ومخاوفه وحقاراته. فنحن محتاجون الى بشر لا الى عبيد وباشوات.

٩ تموز ١٩٤٨

ترجمة احمد بيضون

* من كتاب Politique Intérieure، الذي صدر في طبعة اولى عام ١٩٦٤، وفي طبعة ثانية عام ١٩٨٠.

الشيخ ميشال الخوري في ذكرى ميشال شيحا:

ميشال شيحا، مفكّر لبنان منذ الاستقلال وحتى اليوم

حوار بلال خبيز

الحديث عن ميشال شيحا، مع اي من الذين عرفوه عن قريب، يعني حكما حديثا مع شخص على درجة عالية من الثقافة والكفاءة والالمام بالتاريخ اللبناني، فكيف اذا كان الحديث مع الشيخ ميشال الخوري، ابن اخت ميشال شيحا وابن بشارة الخوري، وهذا نسب يكفي وحده لحديث على درجة كبيرة من العمق. يخرج المحاور بعد انتهاء الحديث آسفا لعدم تمكنه من الاطالة، ولأن الحديث عن ميشال شيحا آسر الى الحد الذي يمنعك ان تستمع للشيخ فتناقشه افكاره، واقتراحاته، وآراءه.

*** من هو ميشال شيحا بالنسبة لك؟**

– ميشال شيحا بالنسبة لي هو والد آخر، طبعا انا افتخر ببشارة الخوري فهو اب يملك كل المعطيات الاساسية لينمو ولد في ظله، ويكتسب الكثير من العلم والخبرة، ولا اعتقد ان ثمة نقصا في بيتنا من ناحية تربية الوالد والوالدة لنا. خالي ميشال شيحا كان عنده ثلاث بنات، احداهن توفاها الله باكراً، وبقي له بنتان، وكان يفتقر الى هذا الحد او ذاك لوجود صبي في محيطه، وقد تبنى الى حد ما اولاد شقيقاته، وعلى الاخص اثنان منهما: موسى دي فريج وانا، وكنا في بيت ميشال شيحا وكأننا في بيوتنا، على رغم ان شيئا لم يكن ينقصنا في بيوتنا. كنت اتصرف في بيت خالي ميشال شيحا كأني في بيت والدي. كان بيت ميشال شيحا وقلبه مفتوحان لنا. هذه الفرصة التي توفرت لي، لم تتوفر لكثيرين غيري، ان اكون ابن بشارة الخوري وابن اخت ميشال شيحا في الوقت نفسه مع ما تعنيه ابوّة كل منهما. اشكر اهلي وخالي على ما قدموه لي. على كل حال كان خالي يملك الوقت للاعتناء بي وبالجيل الصاعد آنذاك اكثر من والدي. وقد تعلمت عنده وعلى يده الكثير: المسلكية والمناقبية في الحياة، والعلم والثقافة والانفتاح على العالم والآخرين، كل ذلك اعطاني اياه ميشال شيحا، واليوم في هذه السن اعرف تماما معنى ما اخذته منه، وقيمة الدين الذي يثقل كاهلي تجاهه. وتجاه والدي ووالدتي من جهة ثانية.

*** كيف بدأ حياته العملية والسياسية؟**

– ميشال شيحا ولد لعائلة تجار، والده كان تاجرا واحد المساهمين الكبار في بنك فرعون وشيحا، لكن والده توفي وهو بعد شاب صغير، هو من مواليد عام ١٨٩١ وقد توفي والده عام

لا يستطيع اي رئيس للجمهورية ممارسة صلاحياته من دون مشاركة احد.

١٩٠٣ وفي الثانية عشرة من عمره اضطر ان يقفز في المدرسة من الصف الخامس الى الثالث فالاول ثم ترك المدرسة وسافر الى انكلترا حيث بقي في مانشستر مدة من الزمن، يتدرب على التجارة والامور المصرفية والمالية وحين عاد من انكلترا اضطر ايضا وباكرا جدا ان يقوم بدور رئيس

ميشال الخوري.

العائلة. ان هذا التلميذ اللامع لم يستطع ان يعيش حياة تلميذ عادي ويتدرج في المدرسة كغيره.

من ناحية ثانية لم يكن ميشال شيحا بعيدا عن هموم الناس ومشغولا عنهم، كان يحب الحياة، بيته مفتوح يستقبل الناس دائما. ومنذ ان استلم بنك فرعون وشيحا، اعتبر في المجتمع كمرجع يستطيع ابداء الرأي في العديد من الامور وليس فقط في الامور المالية والاقتصادية، بل في الامور الاجتماعية والسياسية. وكثيرا ما كان الناس يستشيرونه في امور عائلية خاصة. كان يشبه كرسي الاعتراف للكثير من المحيطين به والاصدقاء ومنهم آل الداعوق وآل بيهم، وقد مارس السياسة مباشرة وترشح للانتخابات واصبح نائبا عن بيروت وساهم مساهمة كبيرة في وضع الدستور. كانت كل تصرفاته وكل نشاطاته تخضع لميزان فلسفي ونظري، يتعلق بمستقبل لبنان وماذا ينبغي ان يكون عليه هذا البلد، وما هو الاطار الذي سينمو فيه، كان لديه تصور واضح وقد ظهر هذا التصور جليا في مقالاته التي كتبها في جريدة لوجور (Le jour)، ويستطيع المرء وهو يقرأها اليوم ان يلاحظ ان ثمة امورا كثيرة كتبها ميشال شيحا آنذاك، لم تفقد حتى اليوم راهنيتها وقيمتها.

*** اذا قارناه بالوالد الشيخ بشارة الخوري، فكيف تراه؟**

– الاثنان كانا يتمتعان بصفات استثنائية، حين كان يجلس المرء في مجلس يضمهما معا كان يحار الى من يستمع، ومن الاثقف بينهما، وقد كانا اصدقاء واحدهما صهر الآخر، وقد تعرفا الى بعضهما في المنفى في مصر، اذ ان ميشال شيحا هرب الى مصر عام ١٩١٥ من لبنان بسبب الطغيان العثماني ولحق به والدي عام ١٩١٦ للسبب ذاته، وربما لو بقيا في لبنان لكانا اصبحا من الشهداء الذين تم اعدامهم في ساحة البرج، في مصر تعرفا ببعضهما، وساهما في اعمال سياسية ونشاطات سياسية من اجل استقلال لبنان والتحرر من الحكم العثماني، عاشا فترة تحضيرية، سمحت لهما حين عادا الى لبنان ان يتعاونا معا في سبيل الاستقلال، وبعد زواج والدي من شقيقته، اصبحا يشكلان عائلة واحدة. بالنسبة لميشال شيحا، فان من كان يجلس في مجلسه لا يستطيع الا ان ينتبه اليه بكل جوارحه، حتى حضور ميشال شيحا الجسدي كان حضورا مشعا، كان يملك الهيبة والسلطة، حتى في شكله الخارجي، فيشعر المرء ان ثمة شخصا غير اعتيادي موجود في المجلس والاجدر ان يحترم ما يقوله ويسمع رأيه، مع ذلك لم يكن معتداً ولا متكبراً كان بسيطاً ومتواضعا، وكريما ومحبا مع كل الناس. كان يسمع كثيرا، انما اقل من الوالد، يمكن للمرء ان يصف بشاره الخوري "كحيوان سياسي" مع الاعتذار على هذا التعبير، كان مضطرا ان يكون مرنا جدا. ميشال شيحا لم يكن على هذه الصورة. حين كان يقتنع بأمر ما، يصعب ان يغير رأيه، او يتنازل للآخرين عن بعض مبادئه من اجل استمرار العلاقة وعدم القطع معهم، لم يكن يغير موقفه لاية اعتبارات، لدرجة انه اختلف فيما بعد مع الوالد [وانا كنت مع خالي في موقفه حينذاك]. لم يكن يقبل ان يتنازل في المبادئ الاساسية او ان يمسسها احد، او ان تفسر على غير ما تعنيه، مقتنعا ان التفريط بجزء من مبدأ اساسي قد يهوّن عليه التفريط بالمبدأ. والدي كان متمسكا بالمبادئ، انما كان مضطرا بسبب الممارسة اليومية، وبسبب الضغوط ان يأخذ بعين الاعتبار بعض الظروف، ويضحي ببعض الاصول.

*** ميشال شيحا المفكر، كيف رأى لبنان ومستقبل لبنان؟**

– ميشال شيحا كان يظن ان الديموقراطية في لبنان، لا تصح اذا اعتمدنا قاعدة العدد فقط، معتبرا ان لا وجود لفئة او طائفة تشكل اكثرية في لبنان، وتستطيع ان تدعي ذلك، وان لبنان يتركب من مجوعة اقليات، وضمن هذه المجموعة تستطيع تصنيف الاقليات حسب العدد، وكان يعتبر انه بحكم الطبيعة، تحولت الطوائف الى احزاب سياسية ومن الصعب – على الاقل مرحليا – ان ينفصل الفرد عن الطائفة التي ينتسب اليها، لان هذا الانتساب تاريخي، فالنظام الطائفي والتركيب الطائفي سبقا الاستقلال والانتداب بزمن طويل. لذلك كان يظن ان المرء لا يستطيع تغيير التاريخ بشطحة قلم، او من خلال دستور خطي. لذا اخذ بعين الاعتبار خصوصيات الطوائف. النظام العثماني كان يعترف بالطوائف، والمجلس الاداري يومها كان يشبه الحكومات اليوم، كان يضم ممثلا عن الموارنة وآخر عن السنة، وآخرين عن الشيعة والكاثوليك والارثوذكس والدروز. كان المجلس الاداري نتيجة اتفاق بين الدول العظمى آنذاك لحماية هذه الاقليات، لذلك فكر ميشال شيحا ان لبنان لا يستطيع ان ينهض او ينمو الا اذا جرى احترام هذه التركيبة الموروثة من التاريخ والظروف الاقليمية والمحلية. هذه احدى افكار ميشال شيحا الراسخة: لبنان مجموعة اقليات كل اقلية لها حقوق وواجبات تجاه الآخرين، ومجموعة الاقليات هذه هي التي تمارس الحكم.

الطائف اليوم كرس هذا الواقع وثبته. علما ان ميشال شيحا في النص الدستوري سنة ١٩٢٦ يعتبر الطائفة شرا لا بد منه وقد نص دستور ١٩٢٦ على الطابع المرحلي للتمثيل الطائفي وعلينا ان نتعامل معها ونتكيف معها لا ان نثبتها في الدستور تثبيتا نهائياً.

*** لكنه اعتبر ان ثمة اعجوبة لبنانية وان لبنان بالتالي بلد مميز لهذه الاسباب؟**

– بالنسبة لميشال شيحا، فان لبنان لا ينمو الا بهذه الطريقة. ولا يستطيع اللبنانيون ان يصلوا الى حكم عصري الا عبر هذا السبيل، اي ان نتجنب قاعدة العدد المعروفة في الديموقراطيات العالمية، ونتبنى قاعدة اخرى. تصون حقوق الاقليات ودرجة مشاركتها في الحكم، وواجباتها السياسية من خلال التركيبة التي يدعوها البعض "المعجزة اللبنانية" او الاعجوبة اللبنانية. وما زلنا حتى الآن نخضع لهذا الاسلوب، فما زلنا مجموعة اقليات. تغيرت بعض التفاصيل انما لا يزال المبدأ على حاله. بعض الاقليات التي كانت تتمتع بتفوق عددي في السابق اصبحت الآن اقل عددا من غيرها، وبالتالي اختلفت مشاركتها السياسية، ولا يزال مجلس النواب يعتمد في توزيع مقاعده على القاعدة الطائفية.

*** هل هذا يعني ان ميشال شيحا كان يدعو الى نوع من "كونفيدرالية الطوائف"؟**

– *لم تكن المراكز في السابق ثابتة، ولم يكن* اي مركز مرتبط بطائفة معينة كما هو الحال اليوم، ربما يصح القول اننا عدنا الى الخلف بدل ان نتقدم، في وقت من الاوقات شارل دباس كان رئيساً للجمهورية وهو ارثوذكسي، ثم وصل ايوب تابت الى سدة الرئاسة وهو بروتستانتي واصبح التقليد في ما بعد ان يكون الرئيس مارونيا، ورئيس الجمهورية ورث بعد الاستقلال صلاحيات

ميشال شيحا وبشارة الخوري كانا مؤمنين بعروبة لبنان.

المفوض السامي، كان للرئيس صلاحيات واسعة. ايضا لم يكن حتميا ان يتسلم شيعي رئاسة مجلس النواب، حبيب ابو شهلا الارثوذكسي ترأس المجلس فترة طويلة، وايضا كان هناك رؤساء حكومات موارنة، بشارة الخوري كان رئيساً للحكومة في ١٩٢٦ و١٩٢٧ واميل اده ترأس حكومات ايضا. لم يكن الوضع الطائفي مكرسا تماما. وفي تصور ميشال شيحا لا ترتبط المراكز والمسؤوليات بالطوائف، انما يجب توزيع المراكز على الطوائف بطريقة عادلة.

*** ما هو تصور ميشال شيحا لدور الموارنة؟**

– شكل وجود المسيحيين سببا لوجود لبنان كدولة مستقلة وهذه نقطة انطلق منها ميشال شيحا. وقد يكون وجود المسيحيين في لبنان من اهم مبررات وجوده كدولة مستقلة، ليس الموارنة تحديدا، انما الطوائف المسيحية عموما، وقد كانت الطائفة المارونية اكثر الطوائف المسيحية عددا آنذاك وربما الطائفة الاكبر بين كافة الطوائف، لكن بالنسبة لميشال شيحا لم يكن للموارنة دور مختلف عن دور المسيحيين ككل، فالمسيحيون حسب ميشال شيحا يعطون لبنان طابعا خاصا مميزا، وكان تقي الدين الصلح يقول مستحضرا فكر ميشال شيحا: "ان المسلمين يعطون لبنان استقلاله، والمسيحيين يعطونه حريته". هذان البعدان اذا اجتمعا يعطيان لبنان الاستقلال والحرية، فالمسلمون يؤمنون المظلة التي تقي لبنان من الطموحات الوحدوية الي يمكن لها ان تذيب لبنان ضمن المحيط العربي الواسع،

ميشال شيحا اليوم

والمسيحيون يعطون لبنان ذاك البعد المتمثل بعلاقتهم بالعالم وتمسكهم بالحريات، ويؤمنون للمسلمين ممارسة الحرية دون الوقوع تحت سيطرة حكم ديكتاتوري كلياني. فوجود الطوائف يردع ويبعد خطر الديكتاتورية. الموارنة بحسب التاريخ اللبناني ترسخوا وتجذروا تماما في الارض اللبنانية ومنذ البداية اعتبروا ان لبنان وطنهم، ربما اخطأوا لانهم فكروا انه لهم وحدهم. لبنان وطن الموارنة وغير الموارنة، ربما هذه احدى اخطاء الموارنة، وميشال شيحا لم يكن يعرف او يفكر ان الموارنة سيرتكبون هذا الخطأ. الموارنة بسبب تقاليدهم وعددهم وترسخهم وتجذرهم في الارض اللبنانية لعبوا دور الدفاع عن لبنان، وتحقيق هويته. وجود الموارنة يجسّد وجود لبنان الى حد ما. بالنسبة لميشال شيحا، لم يكن يرى دورا مارونيا خاصا ومميزا عن دور المسيحيين، كان يعترف بريادتهم وعلى كل حال لم يكن هو نفسه مارونيا كان لاتينيا، وفي وقت من الاوقات ابان الانتداب الفرنسي عرضت عليه رئاسة الجمهورية ورفض، لانه اعتبر ان انتسابه الى طائفة ضعيفة وصغيرة عدديا لا يسمح له ان يكون رئيس دولة مقبولا من الجميع.

*** وما هو تصوره لدور الكنيسة؟**

– لم يكن للكنسية سابقا دور كبير في السياسة كما هو الحال اليوم، ربما لان القيادات السياسية المدنية انهارت اليوم، لانها كانت قيادات متطرفة وانجرت الى مشاريع انتحارية ليس فقط بالنسبة لها بل وقد ادت كذلك الى نحر البلد، لهذه الاسباب تلعب الكنيسة اليوم هذا الدور، اي لاسباب غياب القيادة السياسية المدنية. ميشال شيحا كان يعتقد ان على الكنسية ان تظل بعيدة عن السياسة والممارسة السياسية، والذين يمارسون السياسة يجب ان يكونوا مدنيين.

*** لكن الخلافات السياسية والصراعات التي انخرط فيها ميشال شيحا مع او ضد، كانت مارونية في الغالب، خصوصا الصراع بين الكتلة الدستورية والكتلة الوطنية؟**

– الانقسام بين اميل اده وبشارة الخوري، ومن يمثل كل منهما لم يكن مسيحيا، بل كان لبنانيا، الكتلة الدستورية كانت تضم مجيد ارسلان، صبري حماده، الامير خالد شهاب وغيرهم، كانت القيادة الدستورية خليطا من كل الطوائف، وكذلك الكتلة الوطنية، ربما كانت تضم عددا اقل من المسلمين، انما كان هناك مسلمون في قيادتها، اذكر منهم خير الدين الاحدب. لم يكن الصراع بين الموارنة كان الصراع بين مارونيين على رأسي كتلتين مختلطتين، اليوم صارت الاحزاب كلها من لون واحد، في الاربعينات والثلاثينات لم يكن الوضع على هذا الشكل.

*** الم يكن دور الكنيسة المارونية بارزا في تلك الفترة؟**

– صحيح كان هناك دور للكنيسة، فانا لا اعدم دورها، خصوصا ايام البطريرك الحويك فالبطريرك الحويك ترأس الوفد اللبناني عام ١٩٢٠ الى فرنسا مطالبا باستقلال لبنان ضمن حدوده الحالية، انما في ذلك الوقت لم يكن هناك سلطات سياسية مدنية في لبنان، والسلطة الدينية، كانت لها علاقات وتملك مقومات للعب الدور الذي لعبته آنذاك. البطريرك الحويك هو الذي فرض الحدود وطالب بلبنان بحدوده الحالية وكان مدركا ان هذه الحدود تضم طوائف اسلامية، البطاركة فيما بعد قاموا ببعض الادوار السياسية انما لم يحلوا محل السياسيين، اليوم هناك خطر ان يحلوا محل السياسيين لان الفراغ السياسي كبير وواضح خصوصا في الطوائف المسيحية.

*** انخرط ميشال شيحا في الصراع ضد الكتلة الوطنية، وكان ابرز مفكري الكتلة الدستورية المتصارعة مع الكتلة الوطنية التي كان ابرز مفكريها جورج نقاش.**

– الصراع بين الكتلتين كان موجودا وفي الصحيفتين الكبيرتين ايضا، جريدة "لوجور" كانت لها صبغة استقلالية، وجريدة "الاوريان" انتدابية. بعد الاستقلال تغير الوضع، بقي الصراع انما لمدة قصيرة من الوقت، فاميل اده لم يكن له الاهمية ذاتها التي كانت له قبل الاستقلال، نظرة اميل اده او جورج نقاش لاسرائيل لم تكن كنظرة ميشال شيحا لاسرائيل، وداخليا كان الصراع على الحكم، وكان كل طرف يعتبر نفسه مؤهلا اكثر للحكم. واذا اخذت الخطوط العريضة، فجريدة "لو جور" كانت مؤمنة ان لبنان يستطيع ان يحكم نفسه، وجريدة "الاوريان" كانت تعتبر الحماية الفرنسية ضرورية ليحافظ لبنان على وجوده وكيانه، هذان هما الاتجاهان حسب رأيي.

*** كان فكر ميشال شيحا السياسي قائما على اساس توازن ومشاركة بين المسلمين والمسيحيين، وبالتالي زعامات ومفكرين من كلا الطائفتين، هذا الامر كان موجودا في فترة الإستقلال، بوجود زعيمين متكافئين، ثقافة وحنكة وشعبية هما رياض الصلح وبشارة الخوري، حين اغتيل رياض الصلح، اختلت المعادلة وبالتالي اختل فكر ميشال شيحا.**

– ربما حين اغتيل رياض الصلح، اختل فكر بشارة الخوري، وليس ميشال شيحا، الاستقلال اللبناني انطلق في ذهن بشارة الخوري، بحسب الممارسة، معتمدا على الطائفتين الاسلامية والمسيحية، والمسلمون من زاوية مسيحية، كانوا مجموعة متناغمة مع بعضها، كذلك الامر بالنسبة لنظرة المسلمين للمسيحيين، وبالنسبة لبشارة الخوري كان المفروض ان يتم نوع من الزواج بين المسيحيين والمسلمين وهذا الزواج تجسد بهذين الشخصين بشارة الخوري ورياض الصلح. وبقيا متفقين على معظم المبادئ الاساسية، ورياض الصلح جاء من الدعوة الى الوحدة العربية الى الاستقلال اللبناني وبنى مع بشارة الخوري دولة ووطنا، والتحالف بين هذين الشخصين كان يرمز الى التحالف بين الطائفتين المكونتين للمجتمع اللبناني، حين اغتيل رياض الصلح لا شك ان ميزان بشارة الخوري اختل اختلالا عميقا. كان وجود رياض الصلح يشكل طمأنينة لبشارة الخوري وللمسيحيين وراء بشارة الخوري. هذا الامر ازعج بشارة الخوري انما لم يزعج ميشال شيحا، فبالنسبة لميشال شيحا، نظريا، لبشارة الخوري بديل، ولرياض الصلح بديل، فتفكيره فلسفي وليس مرتبطا بشخص معين.

*** حتى بالنسبة لميشال شيحا، فان التعاون الوثيق والعيش المشترك يجب ان يرتبطا بزعامات تمثل الفئتين، زعامات حقيقية، ولها وزنها، والا اختل التوازن وادى الى كوارث؟**

– هذا صحيح. فالعيش المشترك كان وثيقا، ومن طبيعة التركيب اللبناني ان اي رئيس لا يستطيع الانفراد برأيه، وحين ينفرد الرئيس برأيه تنقسم البلاد، عام ١٩٥٢ استقال بشارة الخوري لانه لم يجد مسلما يتعاون معه. ولما انفرد الرئيس كميل شمعون جرت حرب ١٩٥٨، كميل شمعون بقي مدة طويلة متفردا برأيه وسامي الصلح الذي تعاون معه اعتبر خائنا ونسف بيته لانه تعاون مع كميل شمعون. الرئيس فرنجيه اختلف مع الرئيس رشيد كرامي ايضا، مع ما ادى اليه ذلك الخلاف من نتائج معلومة. لا يستطيع اي رئيس جمهورية في لبنان ان يمارس صلاحياته كاملة دون ان يشاركه احد، ومهما كانت النصوص الدستورية، هذا ما كان يدركه بشارة الخوري ورياض الصلح وميشال شيحا، كان مؤمنا بذلك تماما، وما كان يعتبر انه يمكن لرئيس ان ينفرد باتخاذ القرارات.

*** انشاء اسرائيل عام ١٩٤٨، الم يكن ضربة لكل نظرية ميشال شيحا عن مستقبل لبنان؟**

– وجود اسرائيل، ضرب لبنان في بداية تأسيسه، عام ١٩٤٣ كانت كل الطوائف مع استقلال لبنان، وانا كنت بين المتظاهرين، كان والدي معتقلا وكنا في الشارع لا نعرف من هو المسيحي والمسلم، كنا جميعا ضد الانتداب الفرنسي، وبين ١٩٤٣ و١٩٤٨ انغرست الفكرة اللبنانية في نفوس اللبنانيين، فالمسيحي بدأ يصبح عربيا اكثر فاكثر بسبب المثل الذي كان يعطيه بشارة الخوري المؤمن بعروبة لبنان، والمسلم كان قد بدأ يصبح لبنانيا اكثر فاكثر بسبب الحريات التي كان يتمتع بها في هذه الدولة الصغيرة وكذلك بسبب تحسن الاوضاع المعيشية. ولو اعطي لبنان ٢٥ عاما من الاستقرار، كان يمكن له، ان يتجاوز المخاطر كافة، لكن نشوء اسرائيل بعيد نشوء لبنان بفترة قليلة وقبل ان ينجح لبنان بتأسيس دولة راسخة وتصليب عودها. وجود اسرائيل خلق اضطرابات في لبنان، خصوصا ان لبنان قريب منها، وان امكان انقسامه قائم لان وحدته كانت لا تزال في مهدها آنذاك. ميشال شيحا، قبل انشاء دولة اسرائيل كان من القلائل المدركين خطر نشوء اسرائيل على لبنان وعلى المنطقة، اكثر من ذلك كان يعتبر انها قد تغيّر في السياسة العالمية ايضا. وهذا ما هو مثبت في مقالاته. وحين نشأت اسرائيل كان بشارة الخوري رئيسا، فامر الجيش الصغير آنذاك بالمشاركة مع الجيوش العربية في قتال اسرائيل، وقد وصل الجيش اللبناني الى عكا يومذاك: ذلك الجيش الصغير كان مؤمنا بان السعي العربي المشترك قد يمنع نشوء اسرائيل. لكن اسرائيل نشأت. واضطررنا للقبول بهذا الواقع، انما كنا مدركين للمخاطر التي تشكلها مثل هذه الدولة. هذه الدولة الصغيرة هي دولة عظمى بالنسبة لنا. كان ميشال شيحا مقتنع تماما ان اسرائيل تشكّل خطرا كبيرا على الكيان اللبناني الجديد.

*** لكن خلق دولة اسرائيل، كان لا بد ان يجر لبنان الى التزام عروبي، قد لا يكون له طاقة عليه، خصوصا ان للمسيحيين دور مهم فيه؟**

– لبنان جدير ان يكون مميزا لوجود الطوائف المختلفة فيه وامكانية التطور والنمو في اطار العيش المشترك. وكان ميشال شيحا وبشارة الخوري مؤمنين بعروبة لبنان، انما العروبة يجب ان تفرّق عن الاسلام، اللبناني المسيحي اعتبر نفسه عضوا فاعلاً في الوطن العربي، لانه يؤمن بذات الاهداف، ويكافح من اجل القضايا نفسها، ولا يخيفه كونه مسيحيا، ان يكون عربيا. حين تم الاستقلال ساعد الانكليز على خروج الفرنسيين، لكن اللبنانيين حققوا الاستقلال. في ذلك الوقت لم يكن احد يعرف مستقبل فلسطين، كان المستقبل مبهماً. لم يكن وعد بلفور واضحا. ومنذ البداية بدأ ميشال شيحا يفكر بالخطر الاسرائيلي.

*** الصراع العربي الاسرائيلي كان يستلزم انشاء احلاف، وقيام محاور، وهذا يتناقض مع فكرة ميشال شيحا وبشارة الخوري اذا اردت؟**

– استقالة بشارة الخوري عام ١٩٥٢ كانت في جانب اساسي منها بسبب موقفه من الدخول في احلاف استعمارية وصراعات بين العرب. لم يكن بوسع لبنان ان يكون مع مصر ضد العراق مثلا. كان بشارة الخوري يؤمن بلبنان، متبنياً للقضايا العربية دون الدخول في تحالفات وصراعات بين العرب انفسهم. بعد انشاء دولة اسرائيل حاول الاميركيون والانكليز اقامة احلاف اقليمية، (مشروع ايزنهاور، ميثاق بغداد) عام ١٩٥٠ جاء مبعوثون وقابلوا بشارة الخوري. وطلبوا اليه دخول لبنان في حلف مع بعض الدول العربية والغربية، رفض بشارة الخوري وقتها. وكان هذا احد اسباب خسارته للرئاسة، ايد كميل شمعون فيما بعد حلف بغداد ومشروع ايزنهاور هو وشارل مالك، وكلف هذا الموقف لبنان غاليا، وبنظري ان حرب ١٩٧٥ بدأت عام ١٩٥٨ او كانت لها بذور حينذاك.

*** كيف بدأ الخلاف بين بشارة الخوري وميشال شيحا، وما هي اسبابه؟**

– التجديد. ميشال شيحا كان يحب بشارة الخوري ويعتبره كفوءا. انما كان يعتبر ان على بشارة الخوري ان يحترم الدستور الذي اوصله للرئاسة، وان لا يعدّل فيه خصوصا لمصلحته الخاصة. وكان مؤمنا انه لو لم يجدد بشارة الخوري لنفسه لكان اصبح معلما في السياسة اللبنانية، وان التجديد سينهي بشارة الخوري سياسيا. بشارة الخوري كان غير متحمس للتجديد. رياض الصلح هو الذي جره الى التجديد، رياض الصلح اعتبر ان لبنان ما زال طري العود وان ذهاب بشارة الخوري سيقضي على كل ما تم بناؤه. ما كان التجديد ليحصل لولا ضغط رياض الصلح. طبعا لا انفي مسؤولية بشارة الخوري، لكن لو كان موقف رياض الصلح كموقف ميشال شيحا، ربما لم يفكر بشارة الخوري بالتجديد، او لم يجرؤ حتى على طرحه. طبعا وافق مجلس النواب على التجديد، لكن هذه العملية لا تعني الكثير، وقد تحصل اليوم دون ان تعني شيئا. المهم ان بشارة الخوري قَبِل التجديد، وعلى اثر التجديد اختلف ميشال شيحا وبشارة الخوري. وانا كنت الى جانب ميشال شيحا وتركت القصر الجمهوري ولم اتصالح مع والدي الا بعد استقالته، رأى ميشال شيحا في التجديد مثالا سيئا للرؤساء اللاحقين، وللبنانيين لان في التجديد خروجاً على الدستور الذي آمن به بشارة الخوري، وخطيئة مميتة في مستقبله ودوره السياسيين. هذا هو السبب الاساسي لانفصال ميشال شيحا عن بشارة الخوري، اضافة الى بعض مآخذ ميشال شيحا على ممارسات بعض المقربين من بشارة الخوري، كعمي سليم الخوري واخي خليل الخوري، طبعا اذا نظرنا الى تلك الامور اليوم نجدها بسيطة جدا بالقياس لما يجري. ولكن هذه الامور بالنسبة الى ميشال شيحا مآخذ على بشارة الخوري. كان ميشال شيحا يريد لافراد عائلة الرئيس نفس الترفع الذي كان الرئيس عليه، واعتبر ان بشارة الخوري تصرف تجاههم كان مسيئا له كرئيس للبلاد. واثر هذا الخلاف على والدتي وحزنت جدا وربما ادى ذلك الى وفاتها باكرا.

وجود الموارنة تجسيد لوجود لبنان.

*** سؤال اخير، وانت تنظر الى ميشال شيحا اليوم، كيف تراه، خصوصا بالنسبة لما كتبه حول اسرائيل وخطرها، وهل لا يزال فكره راهنا برأيك؟**

– هناك امور كثيرة تجاوزها التاريخ. انما اسرائيل ما زالت حتى الآن جسما غريبا فرض على الجسم العربي، الرفض ضعف كثيرا في الجسم العربي، وتحول الى نوع من القبول، هذا القبول موجود على صعيد الانظمة وليس ضروريا ان يكون موجودا بالدرجة نفسها على صعيد الشعوب والامثلة في فلسطين ومصر واضحة. وحتى التردد السوري ليس ناتجا عن اسلوب ادارة المفاوضات، بل هو ايضا ناتج عن بعد نظر، اذ ما الذي يضمن ان يقبل السوريون باسرائيل حتى لو وافق الرئيس حافظ الاسد. وحتى لو تم السلم، ولم تحصل اية ردود فعل عنيفة عليه، وانا شخصيا اشاطرهما هذا الايمان. واظن انه لو كان بشارة الخوري وميشال شيحا لا يزالان على قيد الحياة، لكانا الآن لا يزالان يؤمنان بان وجود اسرائيل يشكل خطرا وبالاخص على لبنان، خصوصا على الصعيد الاقتصادي. وقد يكون خطر السلم اكبر من خطر الحرب. بالنسبة لنا.

غسان تويني عن ميشال شيحا:

الديموقراطية اللبنانية ارادة حياة واشتراع مشترك

المادة ٤ – لبنان جمهورية عاصمته بيروت.
المادة ٧ – كل اللبنانيين سواء لدى القانون وهم يتمتعون بالسواء بالحقوق المدنية والسياسية ويتحملون الفرائض والواجبات العامة دونما فرق بينهم.
المادة ٨ – الحرية الشخصية مصونة وفي حمى القانون ولا يمكن ان يقبض على احد او يحبس او يوقف الا وفاقاً لاحكام القانون ولا يمكن تحديد جرم او تعيين عقوبة الا بمقتضى القانون.
المادة ٩ – حرية الاعتقاد مطلقة والدولة بتأديتها فروض الاجلال لله تعالى تحترم جميع الاديان والمذاهب وتكفل حرية اقامة الشعائر الدينية تحت حمايتها على ان لا يكون في ذلك اخلال في النظام العام وهي تضمن ايضاً للاهلين على اختلاف مللهم احترام نظام الاحوال الشخصية والمصالح الدينية.
(الدستور اللبناني)

قليلون اعطي لهم، عبر التاريخ، ان يستشهد بهم الناس كلما استشهدوا بالدستور. المشترع يعود الى ما كتبوا، والقاضي يعود، العالِم اذا نقد، والمواطن اذا طالب، والحاكم اذا حكم، حتى لو استبدّ...

من هؤلاء ميشال شيحا (١)، جاء الدستور اللبناني يجسّد نظرية في الحكم بذل الرجل قلمه في المطالبة بها، قبل ان تصبح دستوراً، ثم في التبشير بها والدفاع عنها، بعد ان استحالت نظاماً حياً.

لم يخترع ميشال شيحا الديموقراطية، لكن النظام الذي يحكم بموجبه لبنان، وسرّه في المجلس النيابي، ليس – يعترف واضعه – بنظام السيادة الشعبية التقليدي.

يقول ميشال شيحا، ويردد: "مجلس النواب عندنا ليس وليد مفهوم ديموقراطي للحياة الوطنية وحسب... المجلس، قبل ان يكون تعبيراً عن الديموقراطية، هو نقطة الالتقاء الضرورية بين الطوائف المتحدة في هذا الوطن. انه المظهر الرسمي لارادة الحياة المشتركة، بل ارادة الحكم المشترك... مجلس النواب هو شرط التوازن والتناسق... هو شرط الارادة المشتركة ومركز تجلّيها لتشهد بسعادة الحياة المشتركة... فاذا تعزز المجلس، ازدادت حظوظ التعايش بسلام، التعايش في السعادة والحرية".

سيداتي سادتي،

فلسفة الديموقراطية، في سياسة ميشال شيحا، انها للبنان غيرها لسواه، وان وحدة اللبنانيين غير الوحدة التي يمكن ان تكون، او تتكون لسواهم.

لبنان بلد مفارقات ومتناقضات اذا لم يصهرها الزمن انفجر بها البلد. وعملية الصهر هذه لها بوتقة واحدة هي المجلس، بل المجالس. المجالس ان تدوم.

ولبنان هذا يجب ان يحكم بحكمة لا بقوة. ذلك ان القوة تجمّد المواقف فتتنافر، في حين تقرّ بها الحكمة، فتتّحد. والاتحاد هذا، سبيله اجتماع المتناقضات والمفارقات في عملية صنع القوانين معاً، فتتوازن القوانين والمصالح عندما تستلهم امثولات الماضي ولو تخطت قواعد الديموقراطية الجامدة.

ثم ان الديموقراطية اللبنانية فيها "شيء من الفيديرالية"، بحيث تكاد الطوائف تكون، كما في سويسرا، كانتونات لا تميّز بينها حدود ارض ولكنها تتميز تبعاً للشرع الذي ينتسب اليه اعضاؤها.

"طبعاً، الحلم هو ان نرى اللبنانيين يتفقون كلهم، فجأة. لكن ذلك لا يمكن ان يكون الا حلماً. لن يقوى احد على اجتراح اعجوبة توحيد اللبنانيين في يوم واحد..." ليس "بالتنازلات السريعة الجسيمة"، ولو متبادلة، يتوحد لبنان، كما لا يعيش لبنان "اذا كانت كل طائفة تعيش والميزان في يدها، تضع وزيراً قبالة وزير، وحاجباً قبالة حاجب"، فتسوق لبنان الى حدود "الحلول المستحيلة". والعدالة، اذا اكثرنا من موازنتها، تنقلب ظلماً لانها تبعدنا عن مكسب الطائفية الوحيد، الذي تعلمناه عبر الاجيال: التسامح والتعايش.

واذا كسر عقد التعايش هذا وبطل التسامح، اذا ضعف التمثيل او هزلت المجالس، فقد الحكم شرعيته وافلت الزمام "فتصبح القوى غير النظامية هي القوى المنظمة للدولة المسيّرة لها" ويقفز لبنان الى دنيا المجازفات المجنونة.

عند هذا الحد، يسوقنا المنطق الى القاعدة الدستورية الثانية في نظرية ميشال شيحا، تكمّل التمثيل. ونكاد نظن تصححه: الرجال.

نعم، الرجال، لان "الحكم فعل الرجال".

ويمضي ميشال شيحا فيعترف "في ظل دستور كدستورنا هو احد اشدّ دساتير العالم تكريساً لقوة السلطة، ارادي بقدر ما هو ديموقراطي، الحكم يكون رهن ارادة الرجال لا ملاحة القوانين...".

فعن الرجال يجب اذاً ان نبحث. رجال حكم يمارسون، مع الفيلسوف، معرفة النفس، ويتحلون برفعة المناقب، رفعة الخلق، رفعة الشعور، رفعة الفكر.

وكالحلقة، تكتمل نظرية ميشال شيحا بالتقاء القاعدة الاولى – التمثيل – والقاعدة الثانية – الرجال – عند الحوارالذي يطلب قيامه بين الحاكم والشعب: "فليتكلم الحاكم، يتكلم حتى يعرف الشعب ما يجب ان يعرف عن مصيره، فيرتفع شعوره وترتفع افكاره"، ويعيش المواطن شؤون الدولة ويعانيها ويشارك فيها، فينتعش المجتمع اللبناني لان "غذاءه الحريات التي من اجلها وجد"، وتتحسر "الصحة الاخلاقية"، وتصان "كرامة الانسان".

"اكيد يهمنا – قال ميشال شيحا – ان يتجهز لبنان، وتشاد فيه العمارات الجميلة، وتشق الطرق الواسعة الطويلة، وتصبح في متناوله كل مظاهر التقدم المادي. ولكن يهمنا اكثر من ذلك ان يكون في لبنان انسان... ان يستيقظ اللبناني المنبطح ذلة ويقف على رجليه... ان يرفض المواطن التضحية برأيه في سبيل مصلحته فلا يكون احد بعد اليوم متزلفاً او مستزلماً، ولا يخاف النائب بعد اليوم مغبة مهاجمة الحكومة الباذلة عطاياها لاتباعها، ولا يؤثر الصحافي بعد اليوم السكوت لان الصمت اوفر ربحاً من النقد الامين".

سيداتي سادتي،

في صنعة كالصحافة محكوم على محترفها – ولو هواية – ان يكتب يومه ليومه – او نهاره لنهاره –. يمتاز الكبار بولائهم لمنطق لا يتغير مع الاحداث، يقيسونها به، ولكنه يظل يتخطاها، فتمر الاحداث ويبقى المقال ما بقي المنطق، فيبدو بعد حين ان الذي تقلّب ليس الكاتب بل الذين كتب عنهم بدّلوا وتبدّلوا، فلم يبدّل الكاتب فكره تبعاً لتصرفهم.

فامام رابطة طلاب جامعة اعرف انها ليست غريبة عن مناهل النظرية "الشيحية"، ولو لم تقرأ كاتبها... وفي نادٍ كان الرجل يكون من اقرب الناس اليه لو تعرّف الى مجتمعه... وحيال احداث وظواهر لو عاصرها ميشال شيحا وعاناها لكان ينظر اليها كما ينظر احرارنا. يتأثر بها فيفتش لها عن حلول اعمق من الحلول، "حلول من لحم ودم" كما يقول، ولكنما تستلهم مبادئ الدستور وتصون جوهره...

سيداتي سادتي،

اقول: امامكم، هنا، واليوم. قد يكون من حق ابي الدستور علينا ان نحاول البحث ، في نطاق النظام الحي القائم، عن قوالب لبنانية ديموقراطية

غسان تويني

جديدة لما يبدو، في ظاهره، وكأنه محتوم عليه ان يفجّر الدستور ويقلب النظام، بل وينسف المجتمع. ذلك ان لبنان "ليس بلد انقلابات ومجازفات"، بل هو "بلد الزمن والنظام يصونه من الخضات، بلد التراث يحميه من القوة".

"الدولة وموظفو الدولة، المؤسسات واجهزة المؤسسات، العمال من كل صنف، ارباب عمل وشغيلة على حد سواء، الاجراء من كل نوع، كلهم الآن يجنّون ويجنّنون. يجب وضع حد لهذا القلق، بل لهذا الهاجس الفردي والجماعي، لهذا الذعر المصطنع الى حد بعيد، فنتوقف عن ارتجال القوانين والمراسيم، لكل شيء واللاشيء...".

كتب ذلك ميشال شيحا في مقال بجريدة "لوجور" عام ١٩٤٦. وكان يمكن ان يكتبه اليوم، فيقترح – ونقترح معه ما لا نزال، بعد ثماني عشرة سنة، بأمسّ الحاجة اليه: "لجنة اشتراعية دارسة عارفة فاهمة، تأخذ وقتها لتدرس وتزن وتخمّر القوانين" التي نحتاجها. ذلك ان "كل شيء تقريباً قد اصبح الآن مسألة تكنية، ومضى زمن الخطب الطنانة الرنانة، زمن التأكيدات الجازمة والاقوال الجميلة الفارغة".

سيداتي سادتي،

لا اظنني اظلم موضوعي "السياسة الداخلية"، او اظلم ميشال شيحا. ان انا افدت من مناسبة هذه الامسية لاقترح مثل هذه اللجنة التشريعية، تنظر في انشاء مجلس نواب جديد، لا يكون همه، وهمنا منه، هو الآخر، ان يجيء تعبيراً تقليدياً عن الديموقراطية بقدر ما نطمح منه وعبره الى "نقطة التقاء ضرورية" اخرى، تجسّد، هي كذلك، "ارادة الحكم المشترك". قد تسألون: مجلس نواب جديد؟ أولا يكفي هذا الذي عندنا؟

أولم يقاوم ميشال شيحا فكرة انشاء مجلس ثان، معلناً توبته لانه لحظ، في الدستور الاصلي، مجلس شيوخ ما لبث ان الغي؟

أوليس ميشال شيحا الذي كان، في مئة مقال ومقال، يقبسو على المجلس، كل مجلس، يتهكّم عليه حيناً، ويؤنبه احياناً، يتهمه بالخمول بل الكسل، فضلاً عن الجهل والتقاعس والفوضى؟...

نعم، ولكن ميشال شيحا كان دائماً يردد ان ما تخسره المؤسسات السياسية يربحه الشارع.

وميشال شيحا، الذي كان قاسياً في محاسبة المجالس. كان يميّز بينها وبين النظام الذي تمثّل. بل واكثر. كان يضع لانتقاد المجالس حدوداً لا يقبل تخطيها. يعرف ان المجلس عندنا هيئة غير محبوبة، دائماً نتهكم عليها، وبشيء من الحق، ولكنه يقول ان قلة احترام المجلس كمجلس تؤدي الى فقدان الدولة، كل الدولة، احترام المواطنين لها، حتى اذا ما انشلّت اعمال المجلس؛ ادى ذلك الى شل اجهزة الحكم كلها.

ثم اكثر واكثر: ميشال شيحا يقول ان علّة المجالس في السلطة التنفيذية التي تسوقها الى غير ما يجب ان تفعل، او تتركها تنساق، فقلما اشترع مجلس قانوناً جائراً او خاطئاً من غير ان تكون الحكومة هي المسؤولة؛ ناهيك بمسؤولية الحكام في شرشحة المجالس، انتخاباً وقيادة واستشراعاً.

من هنا ان *الحلول الجذرية*، في لبنان، لا يمكن ان تقع خارج اطار التمثيل. وكما كان لا بد من مجلس نيابي يكون نقطة التقاء "العائلات الروحية"، كذلك لا يمكن ان تلتقي "العائلات الاقتصادية" الا في هيئة تمثيلية جديدة، تجسّم، بدورها ارادة الاتحاد وتكون موئل الاشتراع المشترك ومركز الحكم معاً.

مجلس طوائف، تلتقي فيه ولو لتتقاتل – كان يقول ميشال شيحا – بدل ان تتقاتل خارج المجلس، في الشارع، في ظل الكنيسة والجامع.

لو عاش اليوم، وواجه ما نواجه، لكان ميشال شيحا يقول: مجلس طبقات ونقابات تلتقي فيه ولو لتتقاتل. بدل ان تتقاتل في الشارع، في ظل المصنع والمتجر وامام الحقول وعبر المكاتب.

بل لو عاش اليوم، لطالب مرة اخرى، من الزاوية الجديدة بـ "ادخال اكبر عدد ممكن من القوى اللبنانية الفاعلة الى المجلس فتتأكد ارادة الحياة المشتركة وتينع عناصر الاتحاد والتناسق".

أوليس الاتحاد والتناسق بين الطبقات المثال والنهاية؟

الذي اراد للطوائف ان تحافظ على شخصياتها من غير ان تتصارع لا بد ان يريد ذلك للطبقات، فتتوزع الحقوق والواجبات من غير ان تمزّق الدولة والمجتمع، تمارس الحكم معاً وتشترع للبنان الجديد قوانين نتوحد في ظلها.

"حلم جميل..." كان يقول ميشال شيحا. كل لبنان، كطبيعته. فيه شيء من الحلم! ومستقبله، كتاريخه، "يصاغ في وحدة مع طبيعته... يجيء مستقبله نمواً طبيعياً لماضيه".

... "لان لبنان هو احد هذه الامكنة القليلة في الارض حيث كل شيء – حتى المادة – يجب ان يفهم ويتكون تبعاً للانسان، لمرتبته، ولروحه"...

... هو "وطن استحقاق، بل وطن الاستحقاق، يعطى للمستحقين وطنا".

كأننا بلبنان اليوم، ان لم نستحقه، يزول!

---

(١) حديث غسان تويني في لقاء حول "ميشال شيحا والسياسة اللبنانية" دعت اليه رابطة الطلاب اللبنانيين في الجامعة الاميركية، وقد اشترك فيه ميشال اسمر وبشير العريضي نشر اولا في "الملحق" بتاريخ ٢٣-٥-٦٥.